

بين جويس وبرنارد شو

وهنا يحضرني مثل آخر وهو ذلك الرجل الذي بلغ أرنلد
العمر ، وعاد لايعلم من بعد علم شيئاً الذي يمجده المفردون
والمخدوعون وهو أكبر دجال على سطح الأرض ، أقصد الى من
يدعى جورج برنارد شو ، فهو الآخر ايرلندي كاثوليكي هاجر من
وطنه الى عاصمة سادته ليعبد في هيكل المال والشهرة ، وليمجد
سدنة هذا الهيكل وينحني أمام قوتهم كما يفعل أحقر بهلوان !
هذا الرجل بدأ حياته اشتراكياً من مؤسسى الجمعية الفابية
واختتمها خادماً لرؤوس الاموال وممجداً للجنيه والشلن والبنس ، لا
أنقده ولا أحقره عدواناً بل عدلاً . اسمع الى ما قاله فى حق جيمس
جويس وكتابه :

« أنا لا أستطيع أن أسطر الكلمات التى استخدمها مستر
جويس ، فقلقى المتزمت يمتنع عن رسم الحروف ، ثم إنى لا أجد
فى وقاحاته الطبية الصبيانية (هكذا) ، أو فى تفاهاته التى يعتز بها

مايستحق الاهتمام « !!

وقد ألقى برنارد شو بنسخته من يوليسيز فى نار المدفأة (هكذا يروى) قائلا : « إن هذا الكتاب يثبت أن رجال دبلين وغلمانها لا يزالون على ما كانوا عليه فى أيامى من قذارة (كذا) فى التفكير ، لا سبيل الى إزالتها ، هذا كل ما هنالك » .

ونبادر الى القول بأن تلك النسخة ، التى أحرقها شو ، إنما وصلت الى يده عند ظهور الكتاب ، أى منذ خمس وعشرين سنة ، ولم يكن شو قد وصل الى سن التخريف أو الطفولة الثانية ، وكان ما يزال مالكاً بعض قواه العقلية ، فهو لا يستحق أن يعذر بسبب الشيخوخة .

ولكنه أحرق النسخة ، ليقدمها قرباناً الى سادته الذين دأبوا من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٣٦ على مصادرته وإحراقه ، وتفتيش أمتعة المسافرين وأغراضهم ، للعثور على نسخ مخبأة ليصادروها فى الموانئ والثغور ، ثم الحكم على طابعيها وناشريها بالغرامة المبهظة فى كل من لندن وفوكستون وهارتيس ونيوهافن وكاليه ، وقد صادروا وأحرقوا بهذه الطريقة الجائرة عشرات الطبعات ، وألوف النسخ ، فأحرق شو نسخته تقريباً وتودداً وخضوعاً لهؤلاء السادة ،

وذم سيده وأستاذه (وإن يكن جويس أصغر منه سنًا) ، ليبراً الى أربابه من شبهة مشاركة جويس فى ذنبه ولو بقراءة كتابه ، دع عنك تقريره أو الثناء عليه ، لأن جويس نال من الحكام نيلاً، ولأنه كاتب ثائر على الظلم والفساد والبغى والطفغان ، ولأن صمعت شولا يكفى، بل وجب عليه أن يعلن رأيه وينادى بتكفير ابن وطنه الذى قام بما كان يجب عليه هو أن يقوم به ، ولأنه حسد جويس ونفس عليه قدرته ونبوغه ومواهبه ، ولم ينل هو شأوه .

وسبب هذه النذالة البرناردشوية (نسبة الى برناردشو) أن كليهم خرج فقيراً مضطهداً من وطنه ، وكلاهما شاعر بالذلل والصفار والظلم الواقع على أمته ، ولكن شو تعاقد مع إبليس بأن باع قلمه ونفسه وضميره ، وكتب وخطب ولم يمسس شعور السادة ولم يسألهم « ثلث الثلاثة كام » حتى فى أشد سنوات الثورة الأيرلندية ، ولم ينس الانجليز له هذه المداجاة على حساب قومه ، فآكروموه وعززوه وأقبلوا على سخافات فى التمثيل والتأليف ، وطبعوا الملايين منها وهو يهرج ليضحكهم ، ويهذى ويخرف ليرضيهم ، بعد أن تعاقد معهم ضمناً على أن لا يتعرض لحكمهم فى بلاده لقاء أنهم لا يضطهدون ثمرات قريحته الكاسدة ، وقد اختار

عاصمة ملكهم وطناً له ، وفضل أن يقيم فى الطبقة العليا ، وترك أهله وإخوانه فى القاع والقعر وغيابة الجب، يصنع بهم الغاصب مايريد ، ومن هنا جاءه المال والشهرة والنفوذ على حساب خيانتة الصامته لوطنه .

ومثله فى ذلك ، مثل أعيان الهنود (منهم الكتاب والساسة والعلماء) الذين نزحوا من الهند ، وعاشوا فى لندن ، فرحب بهم الحكام ، وجعلوا من بعضهم أعضاء فى المجلس الملكى الخاص ، مثل الأمير على المسلم ، المتزوج من سيده إنجليزية ، وكان يعيش فى بيته عيشة المنبوذ كما وصفه أحد أبناء وطنه وملته فى سنة ١٩٠٩ بلندن .

فطلب الدنيا وإقبالها ينسى الدين والوطن والعرض والشرف عند بعض الناس ، ومن هؤلاء توب أوكونور الأيرلندى الذى ورد سجل المهاجرين على لندن فقيراً معوزاً وهو كاتب موهوب ، فالف كتاباً فى ترجمة حياة لورد بيكونسفيلد ، كان سبباً فى شهرته فمد السادة يدهم اليه ، وانتشلوه من وهدة الفاقة ، ورشحوه للبرلمان وأعانوه على تأسيس جريدة باسمه T.P. O'conner ومازال بها حتى مات، وقد قضى حياته فى البرلمان والصحافة غنياً ممقوناً من بنى

وطنه الأيرلنديين ، فليست العبرة بالمواهب أو الحاجة ، إنما العبرة بالخلق والمبدأ .

كان جويس أقدر من كل من هؤلاء وأفقر ، ولكنه لم يبق في لندن خشية الوقوع في حبال هؤلاء السادة الذين يحسنون اصطياد الرجال وشراء الذمم ويكافئون باعتهما مهما طال الزمن . وكان أول ما كتبه جيمس في التاسعة من عمره مقالة فيها نقد مر لمسلك هيلي عقيب خروجه على زعيمه بارنل ومازالت هذه المقالة تعتبر من أرقى وأبلغ ما كتبه جويس (نقلا عن بادريك كولم ص ٩ من مقدمة « أهل دبلين ») وكان عنوان هذه المقالة باللاتينية « وأنت أيضا يا هيلي » ! اقتباساً عن يوليوس قيصر في مسرحية شكسبير « وأنت أيضاً يا بروتس » .

وهيلي هذا أحد أنصار بارنل وأشد المعجبين به ، انقلب عليه وتمر له عندما وقع هذا البطل ضحية للدسائس والفتن وفريسة لمؤامرة جلاستون ، فسبّه وانقلب عليه وقذف في حقه ، وكان عوناً لأعدائه ، فمكث السادة من دخول البرلمان والبقاء به ثلاثين عاماً رئيساً لحزب لا عضوفيه سواه ، فهو الزعيم والرئيس والوكيل والأعضاء ، وكان اسم حزبه « الحزب الأيرلندي المستقل » ، حتى

استقلت ايرلاندا فعينوه حاكماً عليها قبل أن تعلن النظام
الجمهورى، وبلغ أزدل العمر ومات ملوماً محسوراً .
ولو أراد برنارد شو شيئاً من هذا لناله ولكنه فضل الدراهم
والدانير ورصيد المصرف الكبير .